مفهوم إقامة الدين في القرآن الكريم
"أبعاده الوجودية، والمعرفية، والمنهجية"

أ.د محمد الحسن بريمة إبراهيم*

المستخلص

لقد خلق الله تعالى الكون كله (السماوات، والأرض، وما بينهما) ليبلو الناس أيهم أحسن عملا، لذلك فالكون مسخّر لحركة الإنسان الكونية. المثال الديني الثاوي في القرآن الكريم، المطلوب إقامته في الواقع الاجتماعي الظرفي عبادة لله الواحد، هو ذاته الشريعة التي تعاقب بها الرسل من لدن نوح إلى محمد، صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين. جعل الله تعالى لكل أمة من أمم الرسل شرعة (مقاصد)، ومنهاج (وسائل) لتحقيقها تراعي شروط الزمان والمكان للمجتمع الذي يقام فيه الدين.

تعريف ما هو الدين:

للدين بعدان ضروريان، البعد الأول هو الحق الذي نزل به الوحي من عند الله تعالى، وهو علم الله، وهو المثال الذي يبين كيف يعبد الإنسان الله تعالى على الدوام، وعلى كل حال، محققا مغزى استخلافه في الأرض إلى قيام الساعة. وهذا المثال محفوظ من التحريف بحفظ الله تعالى له. والبعد الثاني هو الواقع الاجتماعي المتعبد لله تعالى بالمثال الموحى، المتوحد مع ذلك المثال دون مفارقة، على مستوى الفرد والجماعة، وهو الدين الخالص لله تعالى، وهو الذي أقامه الرسول (صلى الله عليه و سلم)، واستقام عليه ومن تاب معه.

الواقع الاجتماعي هو بالضرورة واقع متغير على الدوام، وتمظهراته التي تتبدّى، زمانا ومكانا، هي في حالة مد وجزر بلا انقطاع، مما يقتضي أن تكون الشرعة والمنهاج اللذان من خلالهما يترقى واقع اجتماعي محدد في اتجاه التوحّد مع المثال الديني الثابت، الثاوي في نصوص الوحي، مختلفين عنهما فيما بين يديه وما خلفه من واقع اجتماعي آخر بينهما أمد بعيد، ووحي جديد. وهذه المفارقة بين المثال الديني الكلي الثابت والواقع الاجتماعي الجزئي المتغير هي التي تبرر، بعد ختم الرسالات، والكتب السماوية، الاجتهاد المعرفي الدائم، صدورا عن المصادر الإسلامية للعلم لإنتاج علم تجريبي يظل به الواقع الاجتماعي الإسلامي متوحدا، أو مشدودا أبدا إلى مثاله الموحى، في الزمان والمكان.

القضية الوجودية تتعلق بطبيعة القُوى، والعوامل الفاعلة، المتفاعلة، والمشكّلة لفضاء الاجتماع الإنساني المستهدف بإقامة الدين، وقد توصل البحث، مستخدما "نظرية" عن الاجتماع الإنساني مستنبطة من القرآن الكريم، أن تلك القُوى هي: الله تعالى؛ الوحي؛ المجتمع الإنساني بقاعدته المادية؛ الشيطان، الملائكة، الكون.

الأبعاد المعرفية، والمنهجية يقصد بها علوم الدين المطلوبة لإقامة الدين في الواقع الاجتماعي الظرفي، وكيف يمكن تحصيل هذه العلوم من فضاء الاجتماع الإنساني بعوامله المتفاعلة، التي أبرزتها رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني. توصل البحث إلى أن علوم الدين، في معظمها، علوم كونية

* باحث في الاقتصاد –معهد إسلام المعرفة –جامعة الجزيرة.

تجريبية، بعضها معياري، وبعضها تفسيري. خلص البحث أيضا إلى أنه لابد من التأسيس لعلوم توحيدية كونية تهيئ لإقامة الدين في امتداداته الكونية من الأرض جميعا(الأرضين السبع)، وتيسر للأمة الإسلامية ارتياد الفضاء، ومزاحمة من سبقوها على بصيرة.

نحن في حاجة إلى توظيف أداة "النظرية" في التعامل مع القرآن الكريم لإنتاج نظريات كليّة(رؤية للعالم) منه تجسّر المسافة بين الوحي كعلم كلي محيط، إلى قيام الساعة، بالتفاعلات الوجودية التي تحدث في فضاء الاجتماع الإنساني، وبين الواقع الاجتماعي الظرفي حيث يقام الدين، ثم الانتقال، عن طريق التنسيل، إلى نظريات أخص، تستهدف مجالا اجتماعيا بعينه، نستنبطها من النظريات الأعم، وهكذا إلى أن نصل إلى نظريات مقاربة للواقع الظرفي تسمح بتوليد فرضيات قابلة للاختبار التجريبي المباشر، تشكل اختبارا غير مباشر لصحة النظريات المستقاة من القرآن الكريم، وليس لصحة القرآن الكريم ذاته.

مقدمة

لم يخلق الكون كله (السماوات والأرض وما بينهما) إلا لابتلاء الناس أيهم أحسن عملا، كما يخبرنا القرآن الكريم: [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ] (هود: 7) يقتضي هذا أن يكون الكون مسخرا للعمل الإنساني، وهو كذلك كما يخبرنا القرآن الكريم: [وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الجاثية:13). وفي إطار الكون المسخر للإنسان فإن الأرض تحديدا هي موضع استخلافه، ومنصّة انطلاقه إلى الكون: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ] (البقرة:30). والاستخلاف يقتضي التمكين المتضمن للتسخير، وهو كذلك كما يخبرنا القرآن الكريم: [وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ] (الأعراف: 10).

إن الدين المقام في الواقع الاجتماعي الظرفي هو عقد استخلاف بين الله تعالى وبين بني آدم، ويمكن تمثيله، ولله تعالى المثل الأعلى، بعقد المعاوضة حيث أحد العِوضين معجّل، والعِوض الثاني مؤجّل. فالعِوض المعجّل هو عمل الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ابتلاءً في زينة الأرض (المال والبنون)، شكرا، أو كفرا: [إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا] (الكهف:7)؛ [الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (الكهف: 46)؛ [إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان: 3)؛ [وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل : 78). أما العِوض المؤجّل فهو جزاء الله تعالى في الدار الآخرة لكل إنسان على عمله الدنيوي، فالجنة لمن شكر، والنار لمن كفر، جزاءً وفاقا: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ] (آل عمران : 185). إن الدين عند الله الإسلام، والمقصود به في هذا البحث هو الإسلام لله تعالى، علما أساسه الوحي، وإيمانا أساسه هذا العلم، وعملا صالحا أساسه هذا العلم وهذا الإيمان: [قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ] (الأنعام : 162 -163) ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، ولا إكراه في الدين فقد تبين الرشد من الغي، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

2- مفهوم إقامة الدين في القرآن الكريم

المقدمات الضرورية لهذا الجزء من البحث تأتي من الآيات القرآنية الآتية:

1.2- [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ] (الزمر: 2)؛

2.2- [قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ] (الزمر: 14- 15)؛

3.2- [إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا] (النساء: 146).

4.2 - [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ] (الشورى: 13)؛

5.2- [ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] (الجاثية:18)؛

6.2- [لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ] (الحديد: 25)؛

7.2- [اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ] [الشورى:17]؛

8.2 - [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] (المائدة:48)؛

9.2- [وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] (الأنفال:39)؛

10.2- [أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)] (التوبة:109).

أولا؛ نستنتج من الآيت في (1.2، 2.2، 3.2) أن للدين مكونين ضروريين، المكوّن الأول هو الحق الذي نزل به الوحي من عند الله تعالى، وهو علم الله، وهو المثال الذي يبين كيف يعبد الإنسان الله تعالى على الدوام، وعلى كل حال، محققا مغزى استخلافه في الأرض إلى قيام الساعة، مما أشرنا إليه في القسم الأول لهذا البحث. وهذا المثال محفوظ من التحريف بحفظ الله تعالى له: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (الحجر: 9). والمكوّن الثاني هو الواقع الاجتماعي المتوحد مع ذلك المثال دون مفارقة، على مستوى الفرد والجماعة، وهو الدين الخالص لله تعالى: (قل الله أعبد مخلصا له ديني)؛ (وأخلصوا دينهم لله)، وهو الذي أقامه الرسول، ﷺ، واستقام عليه ومن تاب معه: [أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ] (الشورى: 13)؛ [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)] (هود: 112). وإقامة الدين هنا نشبهها بإقامة الجدار الذي يريد أن ينقض كما في قوله تعالى: [فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ] (الكهف: 77). فهو جدار كان قائما أصلا، ولكنه تداعى بمرور الزمن، وأوشك على الانهيار، وإقامته تعني إصلاحه وإعادته إلى أصله الذي كان عليه، وهذا هو المعنى المقصود بإقامة الدين في الآية أعلاه، لأنه لما قال إنه شرع لنا من الدين ما كان أصلا بناءً قائما منذ عهود الرسل السابقين، إلا أن بناء الدين هذا قد تداعى بمرور الزمان، بسبب تحريف الكلم عن مواضعه في نصوص الكتاب، وبسبب الانحراف في الممارسة الدينية، فقد أمر المسلمون بإقامة الدين على أصوله الصحيحة في الممارسة، بعد أن جاء القرآن الكريم وأقام الدين على أصوله الصحيحة في النصوص، من خلال تصديقه وهيمنته على كتب الرسل السابقين[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ] (المائدة:48) ويؤكد هذا المعنى الحديث الشريف الذي ورد في الصحيحين: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله، فجعل الناس يطيفون به يقولون ما رأينا بنيانا أحسن من هذا، إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة) (مسلم).

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في الآية في (9.2) أعلاه، لأن مقاتلة المشركين إنما تكون من أجل درء الفتنة عن المجتمع المسلم، وأفراده، حتى يستقيم نظام الحياة الاجتماعية كله على أمر الله تعالى، دخولاً في السلم كافة، توحداً مع الدين الحق (المثال) الذي نزل به الوحي الإلهي. وقد يشمل المعنى أن يكون هذا

التوحيد بين المثال الديني والواقع الاجتماعي وحده هو السائد في كل جزيرة العرب كما جاء في غالب التفاسير.

لقد بينا في القسم اللاحق لهذا القسم أن هذا الدين الخالص المقام في الواقع الاجتماعي يتأتى من التفاعل بين متغيرات خمسة، هي: (الإيمان، النفس المطمئنة، العلم التوحيدي، المال، البنون)، وقد أطلقنا من قبل على عملية بناء الدين التي يعبر عنها هذا التفاعل ب"العمران التوحيدي"، حيث تتقابل وتتفاعل كليات المثال الديني الضرورية الثلاث، الثاوية في الوحي الإلهي، وهي: "العلم"؛ "الإيمان"؛ "العمل الصالح" بخصائص النفس البشرية الثلاث، وهي: "العقل"؛ "الوجدان"؛ "الإرادة".[1] وجاء في هذا الخصوص الآتي: (الإنسان الذي استخلفه الله تعالى في الأرض تتمحور طبيعته النفسية حول ثلاث خواص: الخاصية العقلية؛ الخاصية الوجدانية؛ الخاصية الإرادية. الخاصية العقلية معنية في الأساس بتمكين الإنسان من تكوين تصورات موضوعية للكون، أي من تكوين "رؤية علمية للعالم"[2] تمكنه من التعرّف على هذا الكون الذي هو جزء منه، وإن كان الغالب أن تجنح "رؤية العالم" إلى الذاتية حيث يُغيّب العلم وتتمكّن الأهواء. أما الخاصية الوجدانية فهي التي يعتمد عليها الإنسان في تحويل رؤية العالم العقلية الموضوعية إلى رؤية ذاتية للحياة، حيث يبني كل إنسان تفضيلاته القيمية المنبثقة عن ثقافته الاجتماعية التي تشكلت بدورها من رؤية العالم الجمعية. وهذه الرؤية الحياتية هي التي من خلالها يتعامل كل إنسان مع الحياة، ويتأسس عليها عمله، وتمثل بصمة خاصة به تعبر عن شخصيته المتفردة، رغم أنها تتأسس على قواسم مشتركة مع آخرين بحيث تسمح بإقامة مجتمع يضم أولئك الذين يتشاركون رؤية العالم المعنية. الخاصية الثالثة، وهي الإرادية، معنية بتمكين الإنسان من تحويل رؤيته الحياتية إلى مقاصد ودوافع ونوايا تترجم إلى أفعال إرادية في إطار اجتماعي تمكنه من تدبير أمر حياته ومعاشه.

إن دين الإسلام يقوم على كليات ثلاث، وهي متفاعلة ومتكاملة؛ الكلية الأولى هي العلم التوحيدي، ونطلق عليها تجاوزا (عمارة العقل).[3] والعلم التوحيدي الذي نقصده نعرّفه هنا تعريفا وظيفيا بأنه ذلك الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب، والعمل الصالح في الأرض. الكلية الثانية المتولدة عن الكلية الأولى هي الإيمان بالله تعالى ومتعلقاته، ونطلق عليها تجاوزا أيضا (عمارة القلب). والكلية الثالثة، المتولدة عن تفاعل الكليتين السابقتين لها، هي العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا (المال والبنون)، وهو(عمارة الأرض). ولا علم توحيدي إلا بالوحي، ولا إيمان بالله تعالى إلا بعلم توحيدي، ولا عمل صالح إلا بعلم توحيدي وإيمان بالله تعالى، ولا نفع لنفس في علم ولا إيمان حتى تعمل بهما. هذه العلاقة التفاعلية الثلاثية الأبعاد تؤدي استدامتها إلى نمو مستدام في كل من الإيمان، النفس، العلم، والعمل الصالح

1أنظر التفصيل في بحثنا المرفوع بموقع الباحث بعنوان: "الدلالات الإصلاحية للتقابل والتفاعل بين كليات الدين الضرورية، وخصائص النفس البشرية"، وسوف ينشر في العدد القادم لمجلة "تفكّر".

2نعرّف "رؤية العالم" بأنها: "مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة".

3نقول تجاوزا نزولا على حكم ما شاع من اصطلاح حتى يسهل إدراك المعنى المقصود، وإلا فإن العقل في القرآن الكريم ليس جوهرا، بل هو فعالية من فعاليات القلب بالمفهوم القرآني للقلب، وسوف يتأكد ذلك لاحقا.

في زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، مما يؤدي إلى حفظ صلاح الأرض، واستدامة هذا الصلاح على مستوى البيئة النفسية، والبيئة الاجتماعية، والبيئة الطبيعية. لذلك كان الإيمان؛ النفس؛ العلم؛ المال؛ البنون؛ والتفاعل بينها (الدين المقام) هي الأصول الكلية لمقاصد الشريعة الإسلامية، وهي أيضا الأصول الكلية لمجتمع التوحيد.

يجب أن نلاحظ أن هذه الكليات الثلاث لدين الإسلام تقابل تماماً الخصائص الثلاث لتركيبة النفس البشرية المذكورة آنفا بحيث يصبح الدين من خلال تفاعل العلم التوحيدي مع الخاصية العقلية للنفس رؤية علمية موضوعية للعالم يتحقق بسببها الإيمان، الذي بدوره يتفاعل مع الخاصية الوجدانية للنفس بحيث يتمكن الإنسان من التحقق برؤية وجدانية تقويمية توحيدية للحياة. ويتفاعل محور العمل الصالح مع الخاصية الإرادية للنفس متجها نحو ما على الأرض من زينة (المال، البنون) ليتحقق العمران الاستخلافي للأرض.

الشكل التالي يلخص العلاقة بين التركيبة النفسية للإنسان في أبعادها الثلاثة، وبين الدين بكلياته الثلاث".

شكل رقم(1): العمران التوحيدي

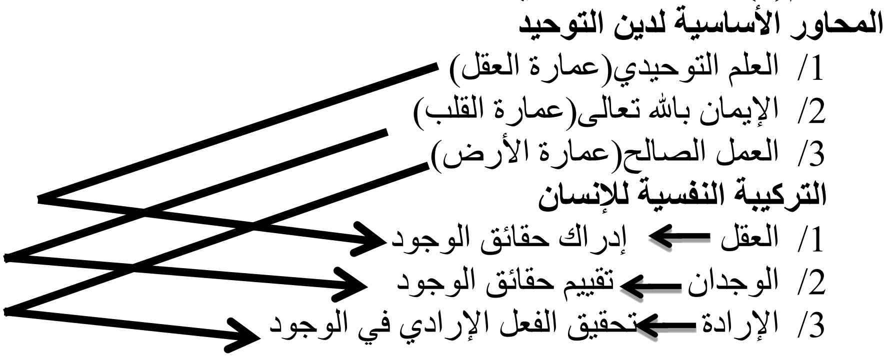

ثانيا؛ نستفيد من الآية في (4.2) أعلاه أن الدين الذي شرعه الله تعالى لأمة محمد، ﷺ، هو ذاته الدين الذي تعاقب به الرسل السابقين، وهو الشريعة التي أمر الرسول (ρ) بإتباعها كما تبين الآية في (5.2)، وهو أيضا (الميزان) الذي توزن به أوضاع الحياة الاجتماعية (الموزون)، وتفاعلاتها حيث يقام الدين، كما تبين الآيات في (6.2) و(7.2) أعلاه. لكن الله تعالى ميّز كل أمة أرسل إليها رسولا بشرعة(مقاصد)، ومنهاج(وسائل) لتحقيق تلك الشرعة، كما تبين الآية في (8.2) أعلاه. ولكي أبين، اجتهادا، لِمَ خص الله تعالى كل أمة بشرعة (مقاصد)، ومنهاج (وسائل) لتحقيقها رغم أن الدين واحد، أقول، وبالله التوفيق، إن الدين الحق الذي أنزله الله تعالى في كتابه على رسله، وأمر بإقامته في الواقع الاجتماعي المرهون بشروط الزمان والمكان، إنما بني حول التفاعل بين المتغيرات الكونية السبعة (الإيمان بالله، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)[4]، المنتجة، من خلال تفاعلها الدائم، لكل أنواع الاجتماع الإنساني، في كل زمان ومكان، كما بينا في القسم الثالث من هذا البحث. ولما كانت هذه المتغيرات

4 الاستنباط المنهجي لهذه المتغيرات من القرآن الكريم بيناه في القسم التالي من هذا البحث، وهو بعنوان: رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني.

الكونية، وتفاعلاتها، هي الأصول الكلية للاجتماع الإنساني المستهدف بإقامة الدين فيه، كانت هي أيضا الأصول الكلية لمقاصد الدين المطلوب حفظها من جانب الوجود، ومن جانب العدم، في كل زمان ومكان. وهي، على هذا المستوى الكلّي، الموحِّد بين جميع الأديان السماوية. ولهذا السبب كان الدين الذي نزل به الوحي على محمد (صلى الله عليه و سلم)، وتكفل الله تعالى بحفظه إلى قيام الساعة، المتناهي في عدد آياته، اللامتناهي في كلماته، ومعانيه، هو للناس كافة إلى ذلك الميقات، رغم أنه نزل محدودا بالزمان والمكان. وهو أيضا السبب الذي يعطي المشروعية لمقولة "الإسلام صالح لكل زمان ومكان".

إذن الواقع الاجتماعي الذي ينجم عن تفاعل هذه المتغيرات هو بالضرورة واقع متغير على الدوام، وتمظهراته التي تتبدّى، زمانا ومكانا، بسبب هذا التفاعل، هي في حالة مد وجزر بلا انقطاع، مما يقتضي أن تكون (الشرعة) و(المنهاج)، اللذان من خلالهما يترقى واقع اجتماعي محدد في اتجاه التوحّد مع المثال الديني الثابت، الثاوي في نصوص الوحي، مختلفين عنهما فيما بين يديه وما خلفه من واقع اجتماعي آخر بينهما أمد بعيد، ووحي جديد. وهذه المفارقة بين المثال الديني الكلي الثابت والواقع الاجتماعي الجزئي المتغير هي التي تبرر، بعد ختم الرسالات، والكتب السماوية، الاجتهاد المعرفي الدائم، صدورا عن المصادر الإسلامية للعلم(الوحي، الكون) لإنتاج علم تجريبي يظل به الواقع الاجتماعي الإسلامي متوحدا، أو مشدودا أبدا إلى مثاله الموحى، في الزمان والمكان. فقد أكمل الله تعالى الدين المثال في القرآن الكريم، وجعل شرعته ومنهاجه، الثابتان نصا، اللامتناهيان معنىً، مستوعبان لكل أنماط الاجتماع الإنساني بتمظهراته التي لا تتناهى إلى قيام الساعة، ولم يبق إلا اجتهاد العلماء: [قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا] (الكهف:109)

الآية في (10.2) تؤكد حقيقة أن الدين المقام في الواقع الاجتماعي هو بنيان وله (ساس)، وهذا الساس هو (تقوى من الله، ورضوان). جاء في الكشاف للزمخشري في تفسير هذه الآية: "والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خَيْرٌ أَمْ مَنْ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شَفا جُرُفٍ هارٍ في قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى، لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى". وجاء في تفسير المنار في معنى هذه الآية: الْمُرَادُ بِالْمَثَلِ هُنَا بَيَانُ ثَبَاتِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ وَقُوَّتِهِ وَدَوَامِهِ، وَسَعَادَةِ أَهْلِهِ بِهِ، وَذِكْرِهِ بِأَثَرِهِ وَثَمَرَتِهِ فِي عَمَلِ أَهْلِهِ، وَجِمَاعُهَا التَّقْوَى، وَبِجَزَائِهِمْ عَلَيْهِ وَأَعْلَاهُ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى، وَبَيَانِ ضَعْفِ الْبَاطِلِ وَاضْمِحْلَالِهِ، وَوَهْيِهِ وَقُرْبِ زَوَالِهِ، وَخَيْبَةِ صَاحِبِهِ وَسُرْعَةِ انْقِطَاعِ آمَالِهِ، وَشَرِّ أَهْلِهِ الْمُنَافِقِينَ.

3- الأبعاد الوجودية لإقامة الدين

القضية الوجودية هنا تتعلق بطبيعة القُوى والعوامل الفاعلة، والمتفاعلة، والمشكّلة لفضاء الاجتماع الإنساني المستهدف بإقامة الدين. والإجابة عن هذا السؤال قضية جوهرية بالنسبة للحديث عن إقامة الدين، وذات أولوية، أولاً؛ لأن الاجتماع الإنساني هو محل إقامة الدين، والدين المقام هو مجتمع

التوحيد الخالص المتوحد بلا مفارقة، في واقعه الظرفي، مع مثاله الديني الثاوي في الوحي الكريم. وثانيا؛ لأن العلم بماهية مكونات الاجتماع الإنساني ذاته، وماهية العوامل الأخرى الفاعلة في فضائه، تعين على الإجابة عن السؤال الأهم، وهو: كيف يقام المثال الديني المطلق الثاوي في نصوص الوحي المتناهية عددا، التي لا تتبدل، ولا تتغير، في مجتمع ما، متحيز في الزمان والمكان، ومحكوم بسنن التغيير، والتبديل؟ ولما كان من ضمن معاني الإقامة "الاستدامة" فإن السؤال يشمل أيضا: كيف يظل مجتمع التوحيد الخالص على الصراط المستقيم على الدوام، متوحدا مع مثاله الموحى: [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (الأنعام: 153) ذلك أننا إذا استطعنا أن نعلم طبيعة الاجتماع الإنساني حقا فلنا أن نقول إن إقامة الدين في مجتمع هذه حقيقته هي أن نصبغه بصبغة الله، وأن يظل على تلك الصبغة على الدوام: (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) (البقرة: 138). لكن العلم المطلوب لإقامة الدين واستدامته، في واقع اجتماعي ظرفي، والمناهج المناسبة لتحصيل ذلك العلم، إنما تحددها الحقيقة الوجودية في فضاء الاجتماع الإنساني، بمكوناتها المختلفة. والحقيقة الاجتماعية المستهدفة بإقامة الدين هي جزء من الكل الوجودي المشكّل لفضاء الاجتماع الإنساني.

نقصد بالحقيقة الاجتماعية في هذا البحث كل شيء يعتمد في وجوده، ولو جزئيا، على الإنسان، فالتكنولوجيا، مثلا، حقيقة اجتماعية رغم احتوائها على مكوّن مادي، والنقود كذلك حقيقة اجتماعية وإن تم صكها من الذهب، والحدائق ذات البهجة حقيقة اجتماعية بمقدار ما عملته يد الإنسان فيها. بالطبع هناك الحقائق الاجتماعية الصرفة كالفعل والتفاعل الاجتماعي، والبنية الاجتماعية...إلخ.

إذن نحن في حاجة إلى نظرية يتم تجريدها من الوحي الكريم تكون قادرة على الإجابة عن كيفية نشأة الاجتماع الإنساني، وماهيته، وعن مكونات فضائه ذات التأثير على ما يجري فيه. لقد قام هذا الباحث من قبل بتجريد هذه النظرية الوجودية للاجتماع الإنساني من القرآن الكريم، وسميتها اصطلاحا "خطة الخلق العامة"، وظللت أقدمها بين يدي كل بحوثي التي تتأسس عليها، وسوف أظل أوالي إعادتها حتى يملّ الناس قراءتها، وعندها نكون قد بلّغنا، سائلين الله تعالى القبول. إذن ها نحن نستدعي "خطة الخلق العامة"، مجتزأة من إطارها العام، لأن مقام البحث هنا يستدعيها.

1.3- أصول الاجتماع الإنساني في القرآن الكريم (خطة الخلق العامة)

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض، ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له، وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض جرت وقائعها في الملأ الأعلى، وانتهت بإغواء إبليس لآدم عليه السلام، مما

أدى إلى خروجه وزوجه من الجنة، ومعهم إبليس، وهبوطهم جميعا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب، وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي **لخطة الخلق العامة** على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير ظاهرة الاجتماع الإنساني عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي **لخطة الخلق العامة** هذه، وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني (خطة الخلق العامة) هو مبدأ التوحيد: [قُل هُوَ اللهُ أَحَدُ* اللهُ الصَّمدُ* لَم يَلِد وَلَم يُولَد* وَلَم يَكُن لَّه كُفُواً أَحَد] (الإخلاص :1 – 4). فالله تعالى ليس كمثله شيء، غني بذاته، مفتقر إليه جميع خلقه، وهو خالق كل شيء، خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيء إلا يسبح بحمده. وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض، واستعمره فيها، وفيها يعيده، ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة، فقال: [أعلَمُواْ أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُر بَينكُم وَتَكَاثُر فِي الأَموالِ وَالأَولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يُهِيجُ فَتَراهُ مُصفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضوَان وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ] (الحديد : 20).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في نظرية وجودية للاجتماع الإنساني (خطة الخلق العامة) على النحو الآتي:

المبدأ الكلي الذي تنطلق منه رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، المعبّرة عن حقيقة الحياة البشرية على الأرض، هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: [وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ] (البقرة:36)؛ [قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ] (الأعراف:25)؛

ثانياً؛ إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله، ومن ثم استخلافه في الأرض: [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً] (الإسراء:70)؛ [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْض خَلِيفَةً] (البقرة:30).

الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف"الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه"الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستخِلف"الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: [يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتقَاكُم إِنَ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)] (الحجرات: 13)؛ [يَأَيُهَا النَّاسُ اتقُواْ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتقُواْ اللهَ الّذي تَسَآءَلونَ به وَالأَرحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيكُم رَقِيباً] (النساء: 1).

ثالثاً؛ إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: [هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] (هود:61)؛

رابعاً؛ إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان، والابتلاء والمحاسبة على العمل: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] (الملك: 2)؛ (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبلُوَكُم أَيُكُم أَحسَنُ عَمَلاً (هود: 7). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها؛

خامساً؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: [إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهمْ أَحْسَنُ عَمَلاً] (الكهف:7)؛

سادساً؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما: "**المال**"(موارد معدنية، وزراعية، وحيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بما عملته يد الإنسان)؛ و"**البنون**"(علاقة جنس بين رجل وامرأة تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): [الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] (الكهف: 46)؛

سابعاً؛ إن الابتلاء في "المال" و"البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: [زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] (آل عمران: 14)؛

ثامناً؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال** و**البنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً، أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب من عمل الإنسان. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: [إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِماً شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً] (الإنسان:3)؛ [إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ] (الزمر:7)؛

تاسعاً؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر، والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم، وتوظيفه في الكون، كفراً، أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من ملهمات الفجور والتقوى: [وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] (النحل: 78)؛ [الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق:

5)؛ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] (الشمس: 7- 10). ثم منح الله تعالى الإنسان الحرية، وإرادة الاختيار، والمشيئة في الفعل بملهمات التقوى الموجبة(الإيمان، العلم، الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق...إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بملهمات الفجور السالبة(الهلع، العجلة، الضعف، الشح، البخل، الكبر، الحسد...إلخ) فيكون كافراً: [فَمَنْ شَاءَ فَلْيؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ] (الكهف: 29).

عاشراً؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر في الإنسان، هي: علم، وإيمان، وعمل صالح. أما العلم فهو علم بالمنعم(الله تعالى)؛ علم بالمُنعَم عليه(الإنسان)؛ وعلم بالنعمة(المال، البنون)، والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه. وأما الإيمان فهو إيمان بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله، وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين. وأما العمل الصالح فهو ذلك الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: [وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] (إبراهيم: 7). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي الروحي: [وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ] (لقمان: 34). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المحسوس الساري في الجسد المحسوس كما في قوله تعالى: [اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الزمر: 42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: [الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] (الكهف: 46)، وهي علاقة (رجل- امرأة– أبناء- أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: [وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةٍ] (النحل: 72). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: [فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ] (الصافات: 149).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة، ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تمظهرات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: [المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا....] (الكهف: 46)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: [زُيِنَ لِلَّناسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِساءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ الْقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ المَئَابِ] (آل عمران:14).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الوجود الاجتماعي، من حيث العلة الظاهرة، إذ لا يحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا يحتمل أدنى منها، كما سوف يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه ، إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع الفطرية بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس، وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الفطرية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم الشرب، والعري الناجم عن عدم اللبس، والإضحاء الناجم عن عدم السكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبط إشباعها بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من الوفاء بمقتضياتها لحفظ أصل النوع البشري، واستدامة حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و"المال" و"البنون" من الأصول الكليّة المطلوب حفظها في مقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية الفطرية مثل الهلع، الشح، البخل، الكبر، العجلة، الضعف، هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1- "العلم بظاهر من الحياة الدنيا"، وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم (السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق بمقتضى الحق في عالم الشهادة: [وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] (النحل: 78)؛ [وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الجاثية:13).

2- "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين". والهوى نعرّفه بأنه جماع الغرائز الفطرية، الحيوية، والنفسية المتجهة بالإنسان نحو متاع الحياة الدنيا.

لما كان "العلم بظاهر من الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة المنتجة للاجتماع الإنساني (النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم الوحي" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس

ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا (المال، البنون).

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وملهمات التقوى، عملا صالحا يحقق "الشكر" لله تعالى على نعمه، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وملهمات الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسؤول، من حيث الأسباب الظاهرة، عن نشأة المجتمعات الإنسانية، وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق أول زوجين من ذكر وأنثى، وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة العنت الجنسي أدت إلى تغشّي الرجلُ المرأةَ، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية المأهولة على أطماعهم، وتدافعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم، والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي"، أو" الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي أُلهمت فجورها وتقواها، وزُيّن لها حب الشهوات الدنيوية من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، سرعان ما تذوق لذّة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها ملهمات الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة، لا للضرورة، والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه، في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع، والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى نظام اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم، ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة، وقوانين، ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف، وتقاليد، وعادات، ومؤسسات اجتماعية، واقتصادية تحفظ له تماسكه، وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات، وتعددها، وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم، وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع حبه لشهوات متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر الإنسانية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات، وتطورها من خلال تدافع أفرادها، فإن مردها الأخير تفسيرا، من

حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للاجتماع الإنساني (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان، والابتلاء، الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض، تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل"، و"لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة، وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح، ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة، إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا.إن التزام الإنسان بتلك الأوامر، والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة، الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: [وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] (إبراهيم:7)؛ (مَّا يَفعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إِن شَكَرتُم وآمَنْتم وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَليماً (النساء: 147). ولكن ملهمات الفجور السالبة، التي جعلها الله تعالى غرائز فطرية في النفس البشرية لحفظها (الهلع، الضعف، العجلة، الكبر، الشح، البخل، الحسد...إلخ) هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر، وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: [قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرَكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود: 87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل مادته زينة الحياة الدنيا: [بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى، 16-17)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (الأنعام، 32)؛ [مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ] (الشورى: 20).

إن مجال الامتحان واحد لكل الناس، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: [إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (المؤمنون: 37)؛أو قال: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص: 16)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو "تعظيم متاع الحياة الدنيا": [اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ من اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ] (الحديد: 20).

أما من قال: [رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عّذَابَ النَّارِ](البقرة: 201)؛ أو قال: [يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ](غافر: 39)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو "تعظيم الإيمان" من خلال "تعظيم العمل الصالح" في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في "تعظيم متاع الدار الآخرة": [سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ] (الحديد: 21)؛ [وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ

فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ] (القصص: 60-61).

هناك عنصران ليسا من جنس الاجتماع الإنساني، بل من خارجه، ولكنهما فاعلان في هذه الخطة الإلهية العظيمة، التي محورها الإنسان، لم نذكرهما من قبل، وهما "الملَك" و"الشيطان". ليس من المناسب هنا التفصيل في طبيعة وأهمية الدور الذي يلعبه كل من "الملك"، و"الشيطان" في حياة الإنسان الابتلائية في هذه الحياة الدنيا، ولكن أي حديث عن هذا الدور مهما قل لابد أن يسبقه، ثم يلازمه حديث عن دور "القلب" كجوهر للنفس البشرية ومحل للابتلاء، ومن ثم كمستقبِلٍ لِلمّة الملك، ولِلمّة الشيطان، كما يفيد بذلك الحديث الشريف الذي أورده النسائي في السنن الكبرى: [أَخْبَرَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لِمَّةً، وَلِلْمَلَكِ لِمَّةً، فَأَمَّا لِمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لِمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ مِنَ الْآخَرِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قَرَأَ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا] (البقرة:268).

القلب في القرآن والسنة هو جوهر الإنسان، ويجب أن يكون المستهدف بالتزكية والتربية على المستوى العقلي لأنه هو الذي يعقل، وعلى المستوى الوجداني لأنه هو الذي يوْجد، وعلى المستوى الإرادي لأنه هو الذي يريد. إن القلب هو الواصل بين العبد وربه، وهو الواصل بين الوحي والعمل الإنساني الصالح من جهة، وبين العمل الإنساني الصالح والخَلْق الكوني من جهة أخرى، لذلك فإن الله تعالى لا ينظر إلى صور الناس، ولكن ينظر إلى قلوبهم. إن القلب خُلق ليكون عابدا؛ فلابد له إذن من إله، فإن لم يكن الله كان إلهه هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هُدىً من الله. إن الهوى هو سفير الشيطان في قلب كل إنسان، وهو لذلك مستقبِل لكل أنواع الواردات الشيطانية، ابتداءً من الوسوسة، مرورا بكل أنواع الغواية الصوتية والمرئية، والأفكار الدنيوية (إن هي إلا حياتنا الدنيا)، وانتهاءً بكل أنماط الفعل الاجتماعي المفضي إلى الفساد في الأرض: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ] (البقرة:11) يخبرنا القرآن الكريم بإيجاز بليغ وفي آيات قليلة عن الدور الذي تقوم به الملائكة في حياة الإنسان في الأرض: [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ] (الشورى: 51) [نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ] (فصلت: 31) [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ] [الأنفال:13] [وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ] (الانفطار: 10-12).

يخبرنا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بتفصيل دقيق عن الدور، السالب والحاسم والخطير، الذي قام، ويقوم به الشيطان، بلا كلل أو ملل، في إضلال الإنسان عن صراط الله المستقيم، منذ الخلق الأول للإنسان، وإلى قيام الساعة، من منطلق الحسد ثم العداء. الحسد للإنسان هو الذي جعل إبليس، الذي نَسَل كل شيطان، يعصي الله تعالى في الملأ الأعلى، وينال لعنته الأبدية بسبب ذلك: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ] (الحجر: 28-40).

إبليس، بعداوته للإنسان، هو الذي أخرج أبويْ بني آدم من الجنة إلى الأرض: [فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى] (طه: 117-123).

إبليس وذريته من الشياطين تعهدوا لله تعالى بملاحقة بني آدم في الأرض والاجتهاد في إغوائهم عن منهجه حتى لا يجد أكثرهم شاكرين، وقد أذن الله تعالى لهم في ذلك: [وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا] (الإسراء:61-64)؛

[وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ] (الأعراف :11-25)؛ [إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا] (النساء: 117 – 120).

إبليس وذريته يقعدون للإنسان صراط الله المستقيم في زينة الحياة الدنيا (المال؛ البنون) حيث الابتلاء بحب الشهوات مستقر في القلب، فقد جاء في الحديث الشريف الذي جاء في السنن الكبرى للنسائي: (عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ " فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ").

إبليس وذريته، رغم ضعف كيدهم، إلا إنهم كسبوا معركتهم مع بني آدم، إلا قليلا، وقد وثّق ذلك القرآن الكريم في آيات بينات: [وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ] (الأنعام:128)؛ [وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ] (سبأ : 40 – 41)؛ [تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (النحل:63)؛ [وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ] (سبأ: 20).

جاء التحذير والتوجيه القرآني حازما للناس عامة، وللمؤمنين خاصة باتخاذ الشيطان عدوا لأنه لهم عدو مبين: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ] (فاطر:5 -6)؛ [يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ] (البقرة : 168)؛ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ] (البقرة:208)؛ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] (النور:21).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شيء حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، ﷺ، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي للمسلم الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الاجتماع الإنساني التوحيدي (النفس، العلم، المال، البنون،). ونقصد بالاجتماع التوحيدي مجتمع التوحيد الذي ينشأ من تفاعل المتغيرات السابقة، ويدخل بجميع تمظهراته في

السلم، وهو الدين المقام، وهو كليّة"**الدين**" المقصود حفظها في مقاصد الشريعة الإسلامية. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ "**الإيمان**" والعمل الصالح: [وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ] (العصر)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ) (الإسراء، 33)؛ و"البنين": [وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً] (الإسراء: 31-32)؛ و"المال": [وَلاَ تَأْكُلُواْ أَموَالَكُ بَينَكُم بِالبَاطِلِ وَتُدلُواْ بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأكُلُواْ فَرِيقاً مِن أَموَالِ النَّاسِ بِالإِثمِ وَأَنتُم تَعلَمُون) (البقرة: 188)؛ و"العلم": [وَلاَ تَقفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إِنَّ السَّمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنهُ مَسئُولاً] (الإسراء: 36).

إن العلاقة بين "**الإيمان**" من جهة وبين "**النفس**"، "**العلم**"، "**المال**" و"**البنون**" من جهة أخرى هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل "**التوحيد**" بوجهيه، العقدي(**الإيمان**) والعملي(**الشكر**). ولا يمكن حفظ "**الإيمان**" إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد (الدين المُقام) على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، وحفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو، في رأي الباحث، معنى قوله تعالى: [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ] (الأنعام: 153). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الاجتماع الإنساني بمقتضى "العلم التوحيدي"، أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد(الشرعة) الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للاجتماع الإنساني فإن وسائل (المنهاج) تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية (عبادات، عادات، معاملات، جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" تعظيما ل"الإيمان"، أو بمقتضى "الهوى" تعظيما ل"المتاع الدنيوي". فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به ملهمات الفجور، وتمكيناً "للعلم التوحيدي" الذي تتعلق به ملهمات التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من حيث عادات المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والمنكح..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظّم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولي الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود"الله تعالى"، أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف "الله تعالى" من قبل المستخلَف "الإنسان" فيما استخلف فيه "الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية ـ بمعناها القرآني لا الاصطلاحي- التي هي شرعة (مقاصد)، ومنهاج (وسائل)، هي

الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هي أصول الاجتماع الإنساني (الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفاً عن إقامة هذا الميزان بالقسط، أو إخساره: [وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ] (الرحمن:7-9).

إن خيار "الحياة الدنيا"، وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في تفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى، والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلّا من هاتين الرؤيتين للعالم نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية، وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة، والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توضع السياسات المناسبة، العام منها والخاص.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية، والقومية تجاهها من خلال النظام المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق تاريخيا من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من "رؤية العالم الدنيوية"، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة، وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية، والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الإنساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسوم البيانية في الشكل رقم (2)، رقم (3)، ورقم (4) أدناه، التي تغني بوضوحها عن شرحها. تتجاوز رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الحقائق الاجتماعية، سواء الناجمة عن التمظهرات التاريخية لنظام الاجتماع التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التمظهرات التاريخية لنظام الاجتماع الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم "الإيمان" بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، في إطار نظام الاجتماع التوحيدي، أو على تعظيم "المتاع الدنيوي" في إطار نظام الاجتماع الدنيوي.

رؤية القرآن للعالم

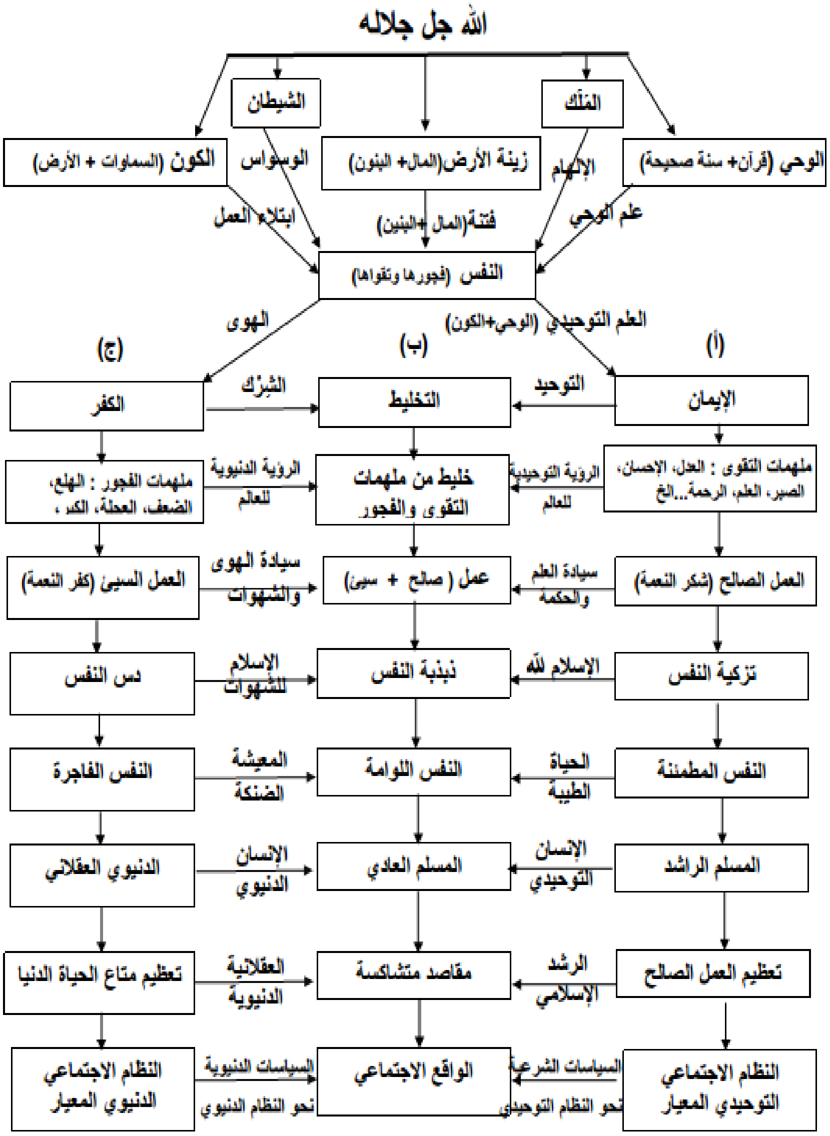

بروفيسور/ محمد الحسن بريمة إبراهيم /معهد إسلام المعرفة (إمام) / جامعة الجزيرة
mbiraima@gmail.com

شكل رقم (3)

نظام الاجتماع التوحيدي

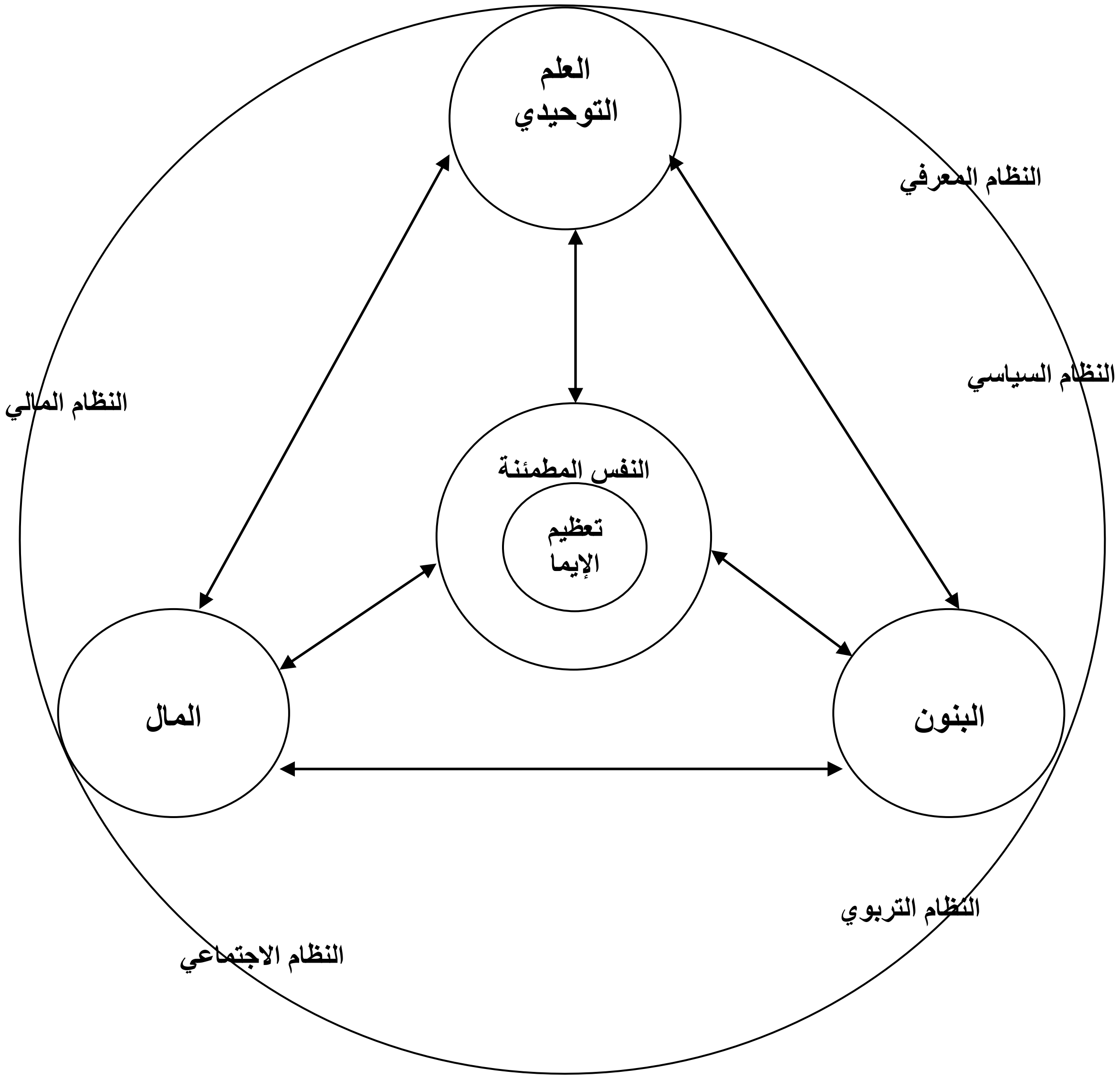

شكل رقم (4)

<u>نظام الاجتماع الدنيوي</u>

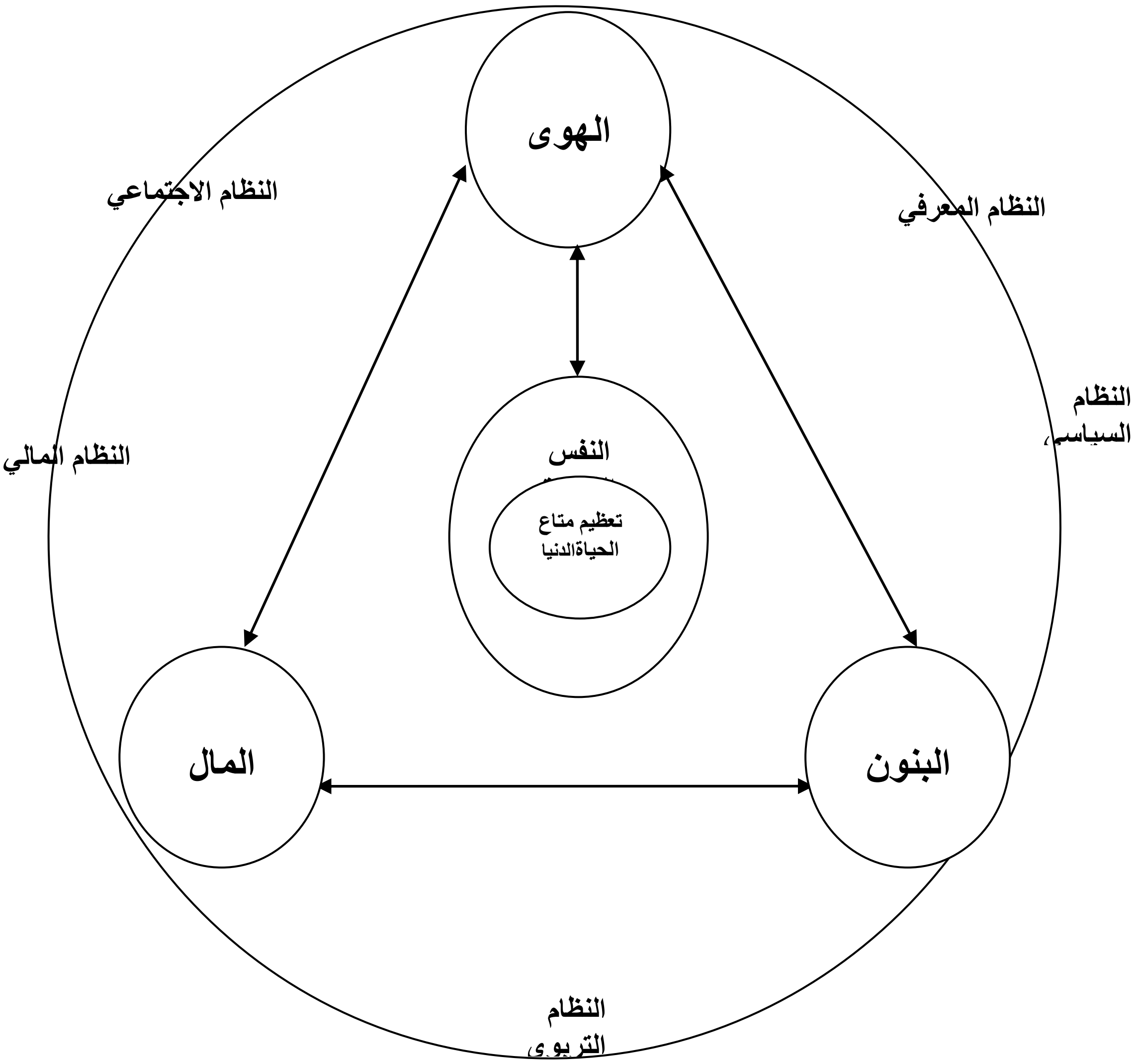

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، "رؤية العالم التوحيدية" التي يمثلها عمود الصناديق (أ) في أقصى يمين الشكل رقم (2)، كما يمثلها الشكل رقم (3)، و"رؤية العالم الدنيوية" التي يمثلها عمود الصناديق (ج) في أقصى يسار الشكل (2)؛ كما يمثلها الشكل رقم (4)، وما بينهما (ب) فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين.

إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية (دالة الإيمان)، بمتغيراتها الكونية الخمسة المتفاعلة ("الإيمان"، "النفس المطمئنة"؛ "العلم التوحيدي"؛ "المال"؛ "البنون")، فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج (الإيمان) ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فاعلية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني أيضا.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو (دالة المتاع الدنيوي) بمتغيراتها الكونية الخمسة المتفاعلة ("المتاع الدنيوي"، "النفس الفاجرة"، "الهوى"، "المال"، "البنون")، فهي أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في "تعظيم متاع الحياة الدنيا"، ويوظف أكثر الوسائل فاعلية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني.

الإسلام الذي جاء به محمد، ﷺ، هو التجلي التاريخي الأتم لرؤية العالم التوحيدية، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية، ولتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. الرأسمالية الغربية المعاصرة، في رأي الباحث، هي التجلي التاريخي الأتم للرؤية الدنيوية، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر من الحياة الدنيا، لأصولها الكلية، ولتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

العمران في الأرض، بشقيه التوحيدي والدنيوي، يتم، من حيث العلة الظاهرة، من خلال التفاعل العظيم بين المتغيرات السبعة الضرورية المنتجة للاجتماع الإنساني في جميع تمظهراته الزمانية، والمكانية كما بينا ذلك في "خطة الخلق العامة" تفصيلا. وهذا التفاعل الاستخلافي يحكمه، على مستوى الفعل الاجتماعي، مبدآن سلوكيان هما، مبدأ تعظيم الإيمان من خلال تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، ومبدأ تعظيم المتاع الدنيوي من خلال تعظيم العمل السيئ في زينة الحياة الدنيا. كذلك يحكم هذا التفاعل على مستوى الميزان الإلهي سنن اجتماعية لا تتبدل، ولا تتحول، وقد عرّفت السنة الاجتماعية على النحو الآتي:

" كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيصدقه ويهيمن عليه فعل إلهي مناسب له، لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة لما قصده الفرد، أو الجماعة من فعلهم، وقد يخص تأثيرها الفرد الفاعل، أو يعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون مباشرا وغير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي، والطبيعي".

فهناك سنن الله الجالبة للنفع بإذن الله، وهي ترتبط عادة بالأعمال الاجتماعية المحققة لمبدأ تعظيم الإيمان الذي يتأسس على نفاذ أثره الاستخلاف التوحيدي، ومن هذه السنن الآتي: سنة الشكر: [وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ] (إبراهيم: 7)؛

سنةالهداية:(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت: 69)؛ ومنها سنن الفرَج، والرزق، والحسْب: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ

عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)] (الطلاق:2-3)؛ ومنها سنة الحياة الطيبة: [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(النحل: 96-97]؛ ومنها سنة النصر: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ] (محمد:7)؛ ومنها سنة الاستجابة [وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر:60)....الخ.

وهناك سنن الله الجالبة للضر بإذنه، وهي ترتبط بالأعمال الاجتماعية المحققة لمبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، ومنها ما يلي:

سنة الكفر: [وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] (إبراهيم: 7)؛ ومنها سنة المعيشة الضنكة: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)(طه: 124)؛ ومنها سنة تقييض الشيطان: [وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ] (الزخرف:36)؛ ومنها سنة الاستدراج: [أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ] (المؤمنون: 55- 58)؛ ومنها سنة الإحاقة: [اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا] (فاطر: 43)؛ ومنها سنة المحق: [يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ] (البقرة: 276)؛....الخ.

ومن رحمة الله بعباده أن الناس يمكنهم الفرار، بأعمالهم، من سنن الله الجالبة للضر إلى سنن الله الجالبة للنفع، قبل فوات الأوان؛ أي الفرار من قدر الله إلى قدر الله، كما هو معلوم من قصة أمير المؤمنين عمر الفاروق، رضي الله عنه، في موقفه من وباء الطاعون الذي أصاب بعض ديار المسلمين في عهده: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الذاريات: 50). ولأنّ سنن الله الاجتماعية مرهون تحققها بأعمال الناس الإرادية الراتبة، ولأنّ هذه الأعمال هي في حال تغير دائم بين الصلاح والفساد، على مستوى الفرد والجماعة، وقد تغلب أعمال الصلاح أحيانا، وقد تغلب أعمال الفساد، من حيث الكم والنوع، ولما كان تقدير كل ذلك علمه عند الله تعالى، فإنّ معرفة زمان، ومكان، ومدى تحقق هذه السنن، وما يترتب علي ذلك من مصالح، أو مفاسد تصيب الناس، أمر يعسر ضبطه علميا. ولعل هذا من رحمة الله بالناس حتى لا يأمنوا مكره، بل يكونوا في حال من الترقب والحذر الدائم: [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ] (الأعراف:97-100).

ولكن أحوال الأفراد والمجتمعات، والمصائب التي تصيبهم، أو تحل قريبا من دارهم، أو البركات التي تفتح عليهم من السماء والأرض، آيات تؤشر على اتجاه عمل تلك السنن، وفي هذا الإطار يأتي دور العلوم الاجتماعية في دراسة تلك الأحوال والظواهر الاجتماعية، وربطها بأعمال الناس الراتبة،

وتصنيف هذه الأعمال من حيث صدورها عن الاستخلاف التوحيدي، أو الاستخلاف الدنيوي، وربطها من ثم بما يناسبها من السنن الاجتماعية المستنبطة من الوحي، أو من التاريخ (الواقع الاجتماعي)، بغرض استخلاص الآيات والعبر، ووضع السياسات الشرعية وتوفيق الأوضاع الاجتماعية، بما يؤدي إلى استدامة الصلاح، أو تدارك الفساد. إن الوحي الكريم، قرآنا وسنة، ثري بالسنن الاجتماعية الإلهية التي تغطي جميع جوانب هذا التفاعل الاستخلافي العظيم، ويجب استخلاص تلك السنن وتصنيفها والإفادة منها في تأسيس العلوم الاجتماعية الإسلامية.

2.3-الأبعاد الوجودية لإقامة الدين في رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني

الآن نحن في وضع يسمح لنا بالبحث في طبيعة القوى والعناصر الفاعلة في فضاء الاجتماع الإنساني، المؤثرة على إقامة الدين، واستدامته، منطلقين في ذلك من رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني المبسوطة أعلاه.

إذا نظرنا إلى الشكل رقم (2) الذي يلخص رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني فسوف نتبين العناصر الفاعلة الآتية في فضاء الوجود الاجتماعي لإقامة الدين:

أولا: الله المتعالي،المصدّق، والمهيمن على جملة الفضاء الاجتماعي،المستهدف بإقامة الدين، من خلال السنن الاجتماعية التي عرّفناها سابقا،

ثانيا: الوحي الإلهي المنزل على فضاء الوجود الاجتماعي في كتاب بلسان عربي مبين، وهو يحوي المثال الديني المطلوب إقامته في الواقع الاجتماعي الظرفي، وهو كلام الله وعلمه، وهو محفوظ من التحريف بحفظ الله له إلى قيام الساعة. وهو كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت، وإن كانت آياته متناهية العدد إلا أن العلم الذي فيه يسع الاجتماع الإنساني، وتفاعلاته الكونية إلى قيام الساعة،

ثالثا: الوجود الاجتماعي، وقاعدته الكونية(النفس، المال، البنون)، المحددان بالزمان والمكان، باعتباره الواقع الاجتماعي الظرفي الذي سوف يشاد فيه بنيان الدين، ومن ثم الاتجاه بالواقع الاجتماعي الظرفي(الدين المقام) نحو التوحّد مع مثاله الديني الثاوي في الوحي الإلهي. فالنفس، أي الإنسان في كليّته المادية والمعنوية، أهم ما تبرزه فيها رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، فيما يتعلق بإقامة الدين، هو "**القلب**" بمعناه القرآني، لأنه الموضع الذي يُصبّ فيه ساس الدين(الإيمان)، لأن الدين بنيان وله ساس، والبنيان الذي لا ساس له لن يعلو الأرض، والذي ساسه رخو لاشك منقض. والاهتمام بأمر القلب أمر بالغ الأهمية لأي مشروع ديني يقام في الواقع الاجتماعي.

هناك أيضا "النفس" بفجورها، وتقواها، وهواها من حيث تعلقها بشهوات المتاع الدنيوي، وأثر ذلك على "القلب"، ومن ثم "الإيمان" الذي هو ساس الدين. والدرس المستفاد هنا هو أهمية، وأولوية البعد التربوي في إقامة الدين في الواقع الاجتماعي، بشروط الزمان والمكان.

"المال" و"البنون" بشهواتهما هما زينة الحياة الدنيا حيث الابتلاء والامتحان الذي قامت عليه "خطة الخلق العامة"، وفضاؤهما هو مضمار السباق، والتنافس لمن أراد الدنيا، ولمن أراد الآخرة، ولمن أرادهما معا. فالذين يريدون الحياة الدنيا، وزينتها إنما يتافسون على تعظيم حظوظهم من متاعها،

والذين يريدون الدار الآخرة يتنافسون على تعظيم صالحات الأعمال في فضائها: [كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا] (الإسراء: 20).إذن فضاء زينة الحياة الدنيا، حيث تتفاعل "النفس" (بفجورها وتقواها) مع "المال، و"البنين"، هو المجال الحقيقي لإقامة الدين. لذلك يعتبر العلم الدقيق بمكونات هذا الفضاء، وبتفاعلاته، بشروط الزمان والمكان، في مجال "المال"، وفي مجال "البنين" حيث علاقة الفتنة بين النساء والرجال، وما يتعلق بها من ذرية، والعلم بالميزان الإلهي: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] (النحل:90)، الذي ينبغي أن يحكم التفاعل الدائم في هذا الفضاء ليظل الدين مقاما على الدوام، هو الهم الأول للذين يريدون إقامة الدين، وعدم التفرق فيه. وإذا كان "الإيمان" المستقر في "القلب" هو ساس الدين المقام، فإن العمل الصالح، الذي هو ثمرة حفز "العلم التوحيدي" لملهمات التقوى في "النفس" في تفاعلها مع "المال" و"البنين"، هو اللبِن الذي يشاد به بناء الدين في الواقع الاجتماعي الظرفي.

من سمات الاجتماع الإنساني الجوهرية أن الناس لها مقاصد حياتية، تتجه غالبا، إن لم يكن الدين مقاما، نحو تعظيم المتاع الدنيوي، وهذا أساس الصراعات والاضطرابات الاجتماعية، لأن المتاع الدنيوي المحدود لا يسع جميع أطماع النفوس البشرية اللامحدودة. لكن عندما تتأسس المقاصد الاجتماعية على تعظيم الإيمان فإنه يسع جميع أنواع التنافس الاجتماعي في عمل الصالحات، ترقيا نحو الكمالات الإلهية. والدرس المستفاد هنا، فيما يتعلق بإقامة الدين، هو أن تكون مقاصد الدين (الشرعة) هي الأساس لمقاصد المجتمع وأفراده، وهي من السعة بحيث تستوعب جميع تطلعات الإنسان المحققة للحياة الطيبة في العاجل، وحسن المآب في الآجل. ولكي تكون هذه المقاصد الدينية هي أساس الدين المقام، وحفظها على الدوام هو الضامن لحفظ نظام الاجتماع التوحيدي، لابد أن تكون هي أيضا المحدد للفعل، وأحكامه (المنهاج)، وللنظام الاجتماعي، بما يحقق تلك المقاصد، بشروط الزمان، والمكان، فالمنطق الثاوي في الفطرة البشرية يقتضي أن تكون المقاصد هي المحدد لوسائل تحقيقها.

أيضا من السمات البارزة للاجتماع الإنساني الفعل الاجتماعي من منطلقات الفجور في النفس كوسيلة لتحقيق المقاصد الدنيوية المحضة، أو من منطلقات التقوى كوسيلة لتحقيق المقاصد الدينية، باعتبار الدنيا مزرعة الآخرة. ويترتب على الفعل الاجتماعي سمة بارزة أخرى هي التفاعل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ويتم ذلك في إطار سمات اجتماعية جوهرية أيضا، منها أحكام اجتماعية تحكم، وتنظم الأفعال، وعادات راتبة تقلل كلفة التواصل الاجتماعي، وبنية اجتماعية محددة بوظائفها (أب، ابن، معلم، تلميذ، مدير، عامل...إلخ)، وعلاقاتها (علاقة الأب بالإبن مثلا)، ومؤسساتها (السوق، الأسرة، المسجد...إلخ) تكيّف التواصل بين أفراد المجتمع، واستدامة هذا التواصل لفترات مقدرة من الزمان من خلال إعادة الأفراد إنتاج أفعالهم وصِلاتهم. والبنية الاجتماعية كلها عبارة عن فعالية تعتمد في وجودها على الفعل والتفاعل الاجتماعي، وإن كانت تتميز عنهما بنوع من الاستقلال، وتؤثر فيهما بدورها. والدرس المستفاد هنا، فيما يتعلق بإقامة الدين، هو أن تصبغ جميع هذه الفعاليات، والقوالب الاجتماعية

بصبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، وأن تكون هناك مراقبة دائمة لهذه الصبغة، حتى إذا بهتت على أي مستوى، يتم تجديدها لتبقى على ما هي عليه، ملازمة للمجتمع الديني المتقدم أبدا ما دام مصبوغا بصبغة الله، وهذا معنى إقامة الدين، واستدامته.

تبرز رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني أن من أهم خصائص الإنسان قدرته على كسب العلم، من خلال وسائل الإدراك لديه (السمع، البصر، الفؤاد)، وهي الخاصية التي تسمح له بعمران الأرض، وباستيعاب رسالة الوحي من السماء، والوفاء بحق التكليف الاستخلافي. والدرس المستفاد، فيما يتعلق بإقامة الدين، هو أن المثال الديني الثاوي في الوحي الإلهي يعتمد كليا في إقامته في الواقع الاجتماعي، واستدامته، على خاصية كسب العلم عند الإنسان، ولذلك أمر الله تعالى الإنسان ألا يقْفُ ما ليس له به علم، وأن السمع، والبصر، والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤلا. فلابد من تثوير هذه الخاصية في المجتمع المقام فيه الدين حتى يكسب كل فرد وسْعه من العلم الذي به يستطيع أن يحقق مقاصده الحياتية الدينية على الوجه الأكمل، ويعي بحق مسؤوليته تجاه ربه، وتجاه مجتمعه، ويصبح ممن قال الله تعالى فيهم: [أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ] (الزمر:9).

لعل الخاصية الأبرز عند الإنسان بما أكدت عليه رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني هو "الحرية": (فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر)؛ (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)؛ (إعملوا ما شئتم)؛ (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين)؛ (كلا لما يقض ما أمره)...إلخ، ووعي الإنسان العميق بهذه الحرية، وما تلقيه عليه من تبعات تترتب على حق الامتياز بها. والدرس المستفاد، بالنسبة لإقامة الدين، هو أن الدين إنما يقام اجتماعيا على أساس اختيار حر للإيمان من قبل الفرد، لا إكراه فيه، وتعاقد حر على تأسيس رابطة الإيمان بين إخوة مؤمنين متساوين، تسقط في نفوسهم، وواقعهم جميع معايير التفاضل الدنيوية، وتعلو معايير التفاضل والكرامة الدينية: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

خاصية بارزة من خصائص الاجتماع الإنساني قدرة النفس على التغيير والتطوير، سواء في بنية الاجتماع الإنساني ذاته، أو في القاعدة المادية التي تدعم الوجود الإنساني بما تعمله يد الإنسان فيها. وهذا يعني أن التغيير هو من طبيعة المجتمع الإنساني، وما لم يتم استيعاب هذه الخاصية فقد تجمد القوالب البنيوية للمجتمع، بينما محتواها من الفعل والتفاعل الاجتماعي في حالة مد يفيض عنها، وتضيق به، وهذا مصدر للتوترات الاجتماعية. والدرس المستفاد هنا، بالنسبة لإقامة الدين، هو أن الاجتهاد المعرفي الدائم في المثال الديني (الشرعة، والمنهاج) الثاوي في نصوص الوحي، الثابتة نصا، اللا متناهية معنىً، أمر حتمي لاستنباط صورته التي تناسب وتستوعب حركة التغيير الاجتماعي الظرفي، وإلا فإن الواقع الاجتماعي سوف يتجاوز القالب الديني الذي كان يستوعبه من قبل، وسوف تسيل أوديته بقَدَرِها في كل اتجاه، وتصبح حركة المجتمع ك"الثور في مستودع الخزف" تخرّب الكثير قبل أن يقر لها قرار. وعندما تجتمع خواص "الحرية"، و"العلمية"، و"التغيير" مع "الإيمان" فإن الإنسان يصير، في المجتمع المقام فيه الدين، طاقة خيّرة هائلة، يأتي من الأعمال العظيمة ما يكافئ عظمة الخلق الكوني الذي جعل مجالا

لحركته، والذي هو لا محالة بالغه، سواء بحوافز دينية، أو دنيوية. والعكس صحيح عندما تجتمع خواص "الحرية"، و"العلمية"، و"التغيير" مع "إن هي إلا حياتنا الدنيا" فإن الإنسان يصير، في المجتمع الدنيوي، طاقة إفساد في الأرض هائلة.

تبرز رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني أن هناك نظامين جوهريين للاجتماع الإنساني يتزاحمان، ويتفاعلان، عبر االزمان والمكان، في فضاء الاجتماع الإنساني، وهما نظام الاجتماع التوحيدي (شكل رقم (3)، ونظام الاجتماع الدنيوي(شكل رقم (4). والعلاقة الوجودية بين النظامين هي علاقة صراعية، يأخذ فيها الصراع، ووسائله أشكالا مختلفة، تتكيف مع أحوال الزمان، والمكان: فقد يكون صراعا عنيفا حاسما:[قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] (الممتحنة:4)؛ وقد يكون صراعا حذرا: [وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ] (الأعراف:87)؛ وقد يكون صراعا جدليا ينتهي نهاية دراماتيكية: [وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ] (هود : 30 – 37)؛ وقد يكون صراعا باردا يعتمد على الكرّ، والفرّ، والمكر: [لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا] (الأحزاب: 60)؛ وقد يكون صراعا شاملا، مستداما: [وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا] (البقرة:217).والدرس المستفاد بالنسبة لإقامة الدين في الواقع الاجتماعي هو أن يؤخذ في الاعتبار العداء، والكيد المستدام من قبل أعداء الدين لأي مشروع ديني توحيدي، قبل وبعد إقامته، وقد يأتي العداء والكيد من داخل المجتمع المقام فيه الدين، وقد يأتي من خارجه، وقد يكون المكر مشتركا.

رابعا؛ الشيطان، عدو الإنسان، الساعي لمنع إقامة بنيان الدين من قبل الإنسان، أو لتقويضه بعد بنائه، ذو المهارات الفائقة، والحِيَل الناجعة في التأثير على خيارات الإنسان، وأفعاله. الشيطان له طرق كثيرة نافذة في التأثير على خيارات الناس، فهو أحيانا يأمر، وهو يوسوس، وهو يزّين، وهو يَعِد، وهو يستفزز بصوته، ويجلب بخيله ورجله، وهو يشارك في الأموال، والأولاد...إلخ، كما بين ذلك القرآن

الكريم. والدرس المستفاد، فيما يلي إقامة الدين، أن يؤخذ الحضور الشيطاني في فضاء البناء مأخذ الجد.

خامسا؛ الملائكة، رسل الله تعالى، الداعمة لإقامة بنيان الدين، والمثبّتة لِبُناته: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ] (فصلت: 30-31). والدرس المستفاد، فيما يلي إقامة الدين، هو استدعاء الأحوال، والأعمال التي تجلب التنزل الملائكي بالتثبيت، وبالبشارة مثل "الاستقامة"، وعدم الاستهانة بدورها هذا مهما خفي.

سادسا، هناك آثار "السنن" الاجتماعية التي تكتنف على الدوام فضاء الاجتماع الإنساني، سواء كانت آثار اجتماعية، أو آثار طبيعية. لنتذكر أننا عرّفنا السنّة الاجتماعية سابقا بأنها: " كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيصدقه، ويهيمن عليه فعل إلهي مناسب له، لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى، قد تكون مطابقة، أو مخالفة، لما قصده الفرد، أو الجماعة من فعلهم، وقد يخص تأثيرها الفرد الفاعل، أو يعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون مباشرا وغير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي". فالسنّة الاجتماعية هي محصلة الجدلية الثلاثية الشهيرة (الغيب- الإنسان- الطبيعة) في فضاء الاجتماع الإنساني، فالله تعالى هو المصدّق، والمهيمن على كل أفعال الناس، فلا فعل يقع من أحد إلا بعلم الله تعالى، وبإذنه، وهو الذي يرتب آثار الفعل بعد وقوعه، الجليّة منها، والخفيّة، النافع منها، والضار، بحسب تقديره (تصديقه) لحقيقة الفعل الصادر من الإنسان. لذلك نجد أن أحداثا طبيعية مدمرة ألحقت بالمجتمع الإنساني أضرارا فادحة، مثل الطوفان، الزلازل، الصواعق، الجراد، القمّل، الضفادع، الجفاف، التصحر...إلخ، ينسبها القرآن الكريم إلى تحقق سنة من السنن الاجتماعية: [فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آَيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ] (الأعراف: 133)؛ [فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ] (سبأ: 16-17). الصواعق، مثلا، ظاهرة طبيعية تصاحب نزول المطر، ولكنها عندما تصيب شخصا ما بضرر يصبح الحدث جزءا من سنّة اجتماعية: [وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ] (الرعد:13)؛ [وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (فصلت:17).

كذلك هناك أحداث اجتماعية جالبة للضر، للفرد، أو للمجتمع ينسبها القرآن الكريم إلى تحقق سنة من السنن الاجتماعية: [وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] (النحل:112). والآية الجامعة لأنواع السنن الاجتماعية الجالبة للضر بإذن الله وردت في قوله تعالى: [قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ

فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ] (الأنعام:95).

أما آثار السنن الجالبة للنفع بإذن الله فتتمثل عموما في الأحوال العادية للمجتمعات عندما تكون آمنة مطمئنة، قد أطعمهم الله من جوع، وآمنهم من خوف، مما يفيض القرآن بذكره، ويذّكر بفضل الله تعالى على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

إذن يمكن أن نستخلص قاعدة عامة مفادها أن جميع الظواهر، والأحداث الاجتماعية، والطبيعية، التي تحيط بالناس، وتؤثر في حياتهم، لا تقتصر أسباب وجودها على ما هي عليه، على العوامل الاجتماعية، والطبيعية وحدها، بل أسبابها الحقيقية هي السنن الاجتماعية، ما ظهر منها، وما بطن.

سابعا، وأخيرا هناك البعد الكوني لفضاء الاجتماع الإنساني، الذي ذكرنا طرفا منه في مقدمة البحث.

وفي بحث لنا بعنوان "الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم" ينشر، إن شاء الله تعالى، في العدد 83 من مجلة إسلامية المعرفة، التي يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، توصلنا إلى فرضيتين أساسيتين يفي ذكرهما بالغرض في هذا المقام. جاء في الفرضية الأولى أن: " الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في كل سماء من السماوات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان". وجاء في الفرضية الثانية الآتي: "سوف يبلغ الإنسان بعلمه وعمله جميع المتماثلات من الأرض في السموات السبع ليحقق مغزى الاستخلاف العمراني عليها قبل قيام الساعة".

والدروس المستفادة بالنسبة لإقامة الدين هي، أولا؛ أن إقامة الدين في فضاء الاجتماع الإنساني لا يقتصر على الأرض المتمكّن منها الإنسان الآن، ولكن يمتد ليبلغ الأرضين السبع حيث تنتهي رحلة الإنسان الدنيوية. وثانيا؛ أن نظام الاجتماع الدنيوي، وهو يسعى لتعظيم متاع الحياة الدنيا، لن يألو جهدا في ارتياد الفضاء، في رحلة كونية لبلوغ واستيطان بقية الأرضين السبع، وما يحققه من علم وتقنية وموارد فضائية لن يتردد في توظيفها في صراعه مع نظام الاجتماع التوحيدي، الذي يمثله الإسلام في هذا الزمان. لذلك لابد أن تستوعب جهود إقامة الدين في هذا الزمان هذه الأبعاد الكونية.

4- الأبعاد المعرفية،والمنهجية لإقامة الدين

الأبعاد المعرفية والمنهجية هنا يقصد بها علوم الدين المطلوبة لإقامة الدين في الواقع الاجتماعي الظرفي، وكيف يمكن تحصيل هذه العلوم من فضاء الاجتماع الإنساني بعوامله المتفاعلة، التي أبرزتها رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني وتم تلخيصها في الشكل رقم (2).

1.4- الأبعاد المعرفية

الدين المقام في فضاء الاجتماع الإنساني، المتوحد مع مثاله الديني الثاوي في نصوص الوحي، يرتكز على "علم توحيدي" أساسه الوحي الإلهي، وعلى "إيمان" بالله تعالى أساسه " العلم التوحيدي"، وعلى "عمل صالح" في زينة الحياة الدنيا(المال، البنون) أساسه "العلم التوحيدي" و"الإيمان". إذن نحن في حاجة إلى علم توحيدي عن جميع مكونات فضاء الاجتماع الإنساني التي ذكرناها سابقا، وعن

تفاعلاتها المشكّلة للفضاء الاجتماعي: علم يتعلق بوجود الله تعالى المقام من أجله الدين، وهو، بجانب الوحي، علم كوني تجريبي، يدرس الكون كدليل إيمان بالله الواحد، ثم علم يتعلق بالفعل الإلهي في الفضاء الاجتماعي، لا سيما من خلال "سنن" الاجتماع الإنساني المذكورة آنفا.ثم هناك حاجة إلى علم يتعلق بالتعامل مع الوحي(قرآن، سنة) باعتباره في ذاته علم معادل معرفيا لمكوّنات فضاء الاجتماع الإنساني، وللتفاعل الوجودي الدائم بينها إلى قيام الساعة، وباعتباره مصدرا للعلم التوحيدي المتخصص في هذا الفضاء.مطلوب أيضا علم بالاجتماع الإنساني ذاته باعتباره المستهدف بإقامة الدين، وهو علم بعضه معياري(أفعل، لا تفعل) يتعلق بمعيارية المثال الديني الثاوي في الوحي المتنزل على الواقع الاجتماعي الظرفي، في كل تفاصيله، ليرتقي به نحو التوحد مع مثاله الديني، وبعضه علم تفسيري تجريبي يدرس الواقع الاجتماعي على ما هو عليه، والأسباب التي أدت إلى ذلك الواقع، قبل وبعد التجربة الدينية، وإلى أي مدى، وفي أي مجال يقارب الواقع الاجتماعي المقام فيه الدين مثاله. وهو في جملته علم يتأسس على دالتي "الإيمان"، و"المتاع الدنيوي" باعتبارهما المقصدين المعظّمين من قبل من اختاروا خيار "الدار الآخرة"، ومن اختاروا خيار "الحياة الدنيا"، كل دالة بتشعباتها في تفاصيل الحياة الاجتماعية، ونُظُمِها المختلفة، وعلى تأثيراتهما المتبادلة. وسوف يكون للسنن الاجتماعية، كما تم تعريفها أعلاه، دورها في إعطاء هُويّة متميزة لعلوم الاجتماع التوحيدية لأنها تربط الجدليات الثلاث(الغيب، الإنسان، الطبيعة) في فضاء الاجتماع الإنساني.

لابد من علم عن الشيطان، ودوره الحاسم في التأثير على خيارات الإنسان وأفعاله في فضاء الاجتماع الإنساني، باعتبار ذلك جزءا أساسيا من علوم الاجتماع الإسلامية، وأي محاولة لتجاوز هذه الحقيقة المؤكدة بالوحي سوف تكون نتيجتها هي إضعاف القدرة التفسيرية لهذه العلوم. كذلك نحن بحاجة إلى علوم تتعلق بالدور السالب للشيطان في حياة الإنسان حتى يتم التعامل المنهجي معه على المستوى التربوي بما يحمي قلب المسلم من الواردات الشيطانية عليه، لا سيما وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق،كما جاء في الحديث الشريف. وهذا العلم المتعلق بالشيطان سوف يقطع الطريق على كثير من المشعوذين الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، باسم الوقاية والعلاج من الأمراض الشيطانية.

نحن أيضا في حاجة إلى علوم تختص بدراستنظام الاجتماع الدنيوي بتمظهراته الظرفية المختلفة، وبدراسة علاقته الصراعية مع مجتمع التوحيد في فضاء الاجتماع الإنساني، ليس فقط للحذر من الكيد الآتي من قبله، ولكن لأنه مجال للدعوة إلى "الإيمان" أيضا.

أخيرا لابد من التأسيس لعلوم توحيدية كونية تهيئ لإقامة الدين في امتداداته الكونية من الأرض جميعا (الأرضين السبع)، وتيسر للأمة الإسلامية ارتياد الفضاء، ومزاحمة من سبقوها على بصيرة.

2.4- الأبعاد المنهجية

إذا كان ما سبق هي العلوم التي لابد منها لإقامة الدين في هذا الزمان، فما هي المناهج العلمية المناسبة لتحصيل هذه العلوم من مصادرها المتاحة في فضاء الاجتماع الإنساني مما بينته رؤية القرآن للعالم التي تم بسطها أعلاه. هذه المصادر الأولية لعلوم الدين ثلاثة: أولها؛ الله تعالى، عالمُ الغيب والشهادة؛ وثانيها، الوحي الكريم متمثلا في القرآن العظيم، والسنة النبوية الصحيحة؛ وثالثها، الكون بشقيه الطبيعي، والاجتماعي.

الوجود، ونخص به هنا عالم الشهادة، حيث يقام الدين في فضائه الاجتماعي، له ثلاثة مستويات في علاقته بالوعي الإنساني:

أولا؛ الوجود العملي الذي يحمله الناس في تصوراتهم عن عالم الشهادة الظاهر للحواس، من خلال ما يدركونه منه بحواسهم. وهذه التصورات في غالبها غير محايدة، بل هي محمّلة بالتحيزات المحكومة برؤية العالم التي من خلالها يرى كل إنسان العالم، ويفعل فيه، ويتفاعل معه: [وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ] (يونس:36).

ثانيا؛ الوجود الفعلي لعالم الشهادة الظاهر للحواس، مستقلا عن تصورات الناس وإدراكهم له.

ثالثا،الوجود الحقيقي لعالم الشهادة الظاهر للحواس، محكوما بالأسباب التي تجعله على ما هو عليه.

علوم الدين المذكورة أعلاه، في غالبها، علوم كونية تجريبية، وقد بسطنا المقصود بهذه العبارة في بحث آخر[5]، وهي تتعلق بالمستوى الثالث من الوجود في فضاء الاجتماع الإنساني، ومن ثم فلا المنهج الاستنباطي، ولا المنهج الاستقرائي وحدهما يكفيان لتأسيس هذه العلوم. المنهج الاستنباطي يستوفي الحقيقة الصورية فقط، فلو قلنا، مثلا، "كل السودانيين كرماء" ثم أشرنا إلى شخص بعينه، وقلنا إنه سوداني، فإن المنطق الاستنباطي يحكم ضرورة بأنه كريم، ولكن تبقى مقولة "كل السودانيين كرماء" تحتاج إلى دليل من الواقع. هنا يأتي دور المنهج الاستقرائي ليبدأ من الجزئي المدرك بالحواس (الواقع) مترقيا من خلال التعميم نحو الكلّي المجرّد، لكنه يبقى، في كل الأحوال، على المستوى الثاني من الوجود، يبحث في علاقات الاطّراد، والانتظام التي تربط بين الظواهر، ويظل الحق الذي يصل إليه ظنيا، مهما تراكمت شواهده لعدم قدرة الباحث على استقصاء ما بين يديه، وما خلفه من مفردات الظاهرة المعنية، ومحدودا مهما تعاظمت نتائجه لعدم قدرة المنهج على الوصول إلى الأسباب الخفية التي تجعل الواقع على ما هو عليه. ويبقى المستوى الثالث من الوجود، حيث الأسباب التي لا تظهر، ولكنها هي التي تجعل عالم الظواهر على ما هو عليه، يحتاج إلى مناهج أخرى في التفكير والبحث العلمي تسمح، فيما تسمح به،بمصدرية الوحي للعلم، وبالبحث في دور الفعل الإلهي من خلال السنن الاجتماعية، في إيجاد الظواهر الاجتماعية، والطبيعية المشكّلة للواقع الاجتماعي، وفي دور الشيطان كذلك في خيارات وأفعال الناس التي تؤدي إلى تلك الظواهر.

5 أنظر بحثنا بعنوان "الدلالات الإصلاحية..."، مرجع سابق.

نحن في حاجة، كذلك، إلى توظيف أداة "النظرية" في التعامل مع القرآن الكريم لإنتاج نظريات كليّةمنه تجسّر المسافة بين الوحي كعلم كلي محيط، إلى قيام الساعة، بالتفاعلات الوجودية التي تحدث في فضاء الاجتماع الإنساني، وبين الواقع الاجتماعي الظرفي حيث يقام الدين، ثم الانتقال، عن طريق التنسيل، إلى نظريات أخص تستهدف مجالا اجتماعيا بعينه نستنبطها من النظريات الأعم، وهكذا إلى أن نصل إلى نظريات مقاربة للواقع الظرفي تسمح بتوليد فرضيات قابلة للاختبار التجريبي المباشر،تشكل اختبارا غير مباشر لصحة النظريات المستقاة من القرآن الكريم، وليس لصحة القرآن الكريم ذاته.

لقد توصلنا في قسم سابق من هذا البحث إلى نتيجة عامة مفادها أن الظواهر، والأحداث الاجتماعية، والطبيعية التي تصيب الواقع الاجتماعي، جالبةً النفع، أو الضر للمجتمع، أو لأفراده، إنما هي نتيجة لعمل سنة، أو أكثر، من السنن الاجتماعية. لذلك يمكن للبيانات التي يتم جمعها عن هذه الظواهر، من خلال نظريات، ومناهج معينة، أن تعطي مؤشرات هامة على طبيعة السنن الاجتماعية الحاكمة لتلك الظواهر، ومن ثم الدليل العلمي على إن كان المجتمع المقام فيه الدين يتبع صراط الله المستقيم في المجالات الاجتماعية المعنية، أم يتبع سبلا أخرى. واعتمادا على هذه النتائج يمكن وضع سياسات شرعية تعزز الاتجاهات المقيمة للدين، وسياسات أخرى تضعف، أو توقف، أو تبدل الاتجاهات التي توهن بنيان الدين.